البحث الصوتي والعروضي

في

رسائل أخوان الصفاء

الأستاذ المساعد الدكتور

محمد عبد الزهرة غافل

جامعة الكوفة / كلية الآداب

أولا : **البحث الصوتي**:

دأبت الدراسات الصوتية الحديثة على دراسة الصوت فيزيائيا وقد عُرف ذلك بـ (علم الأصوات الأكوستيكي) Acoustic phonetics، وهو (فرع من علم الأصوات يهتم بدراسة الخصائص المادية أو الفيزيائية لأصوات الكلام أثناء انتقالها من المتكلم إلى السامع))[١]، واختار الدكتور كمال محمد بشر أن يطلق عليه اسم (علم الأصوات الفيزيائي) physical phonetics، مع علمه بأن المصطلح الثاني لم يكن ترجمة دقيقة المصطلح الأول،قال : (علم الأصوات الأكوستيكي) هو ((نسبة إلى acoustic، وهو فرع من الفيزياء physics ومن ثم كانت الإشارة إليه أحيانا بالمصطلح الآخر...من باب إطلاق العام وإرادة الخاص))[٢]، أمّا في تعليله لاختياره هذا المصطلح فقال: ((وذلك بغرض التسهيل على القارئ العربي، إذ الترجمة العربية للمصطلح الثاني أسهل وأخصر، أمّا المصطلح الأول فلا يمكن ترجمته ترجمة دقيقة إلا بعبارة طويلة))[٣]، في حين ترجم الدكتور محمود السعران كلمة Acoustic بـ (سمعي) وشرحها بقوله: ((كل ما يتعلق بالصوت (فيما عدا الناحية الفسيولوجية) من انتقال موجاته في الهواء ووصوله إلى أذن السامع، وأثره السمعي))[٤]، وهو بهذا يجمع بين فرعين من فروع علم الأصوات، وهما: الأكوستيكي Acoustic والسمعي Auditory [٥]، وليس بعيدا من تفسير السعران التفسير الذي ذكره ماريوباي من أن علم الأصوات الأكوستيكي يعالج أصوات الكلام كما تستقبلها أذن السامع أو يتناول الخصائص الانتقالية للكلام، وعلى هذا فهو شامل على جانبين هما:

(أ) الجانب الفيزيائي.

(ب) الجانب الفسيولوجي المتعلق بالسمع وإدراك الصوت[٦].

وقد اعتاد الدرس الصوتي الحديث أن يتحدث عن أكوستيكية الصوت غير اللغوي من حيث الإنتاج والانتقال والاستقبال قبل أن يتحدث عن أكوستيكية الصوت واللغوي[٧].

ومما ورد في الرسائل من هذا قولهم : ((والصوت هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها ببعض))[٨]، وهذا القول يشير إلى وجود جسم في حالة تذبذب، وهو العنصر الأول من العناصر الثلاثة[٩] التي لابدّ من أن تتضمنها العملية الصوتية، وأمّا العنصر الثاني فهو وجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب، والهواء ـ في الأغلب ـ هو الوسط الناقل لتلك الذبذبات، ((فالصوت noise مهما كان مصدره أو أصله يحتوي على اضطراب مادي في الهواء يتمثل في قوة أو ضعف سريعين للضغط المتحرك من المصدر في اتجاه الخارج. ثم ضعف تدريجي ينتهي إلى نقطة الزوال النهائي. وتعقد عادة مقارنة هذا بما يحدث من تموجات نتيجة إلقاء حجر على سطح ماء أملس))[١٠]، وهذا ما تنبّه عليه أخوان الصفاء، فبعد ذكرهم لأنواع الأصوات قالوا: ((وكل هذه الأصوات إنّما هي قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام، وذلك أن الهواء لشدّة لطافته وخفّة جوهره وسرعة حركة أجزائه، يتخلل الأجسام كلها، فإذا صدم جسم جسما آخر، انسلّ ذلك الهواء من بينهما، وتدافع وتموّج إلى جميع الجهات، وحدث من حركته شكل كرويّ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها، وكلّما اتّسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه، إلى أن يسكن ويضمحل))[١١]، وقالوا في موضع آخر: ((وكل هذه الأصوات إنما هي قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام. وذلك أن الهواء لشدّة لطافته وخفّة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها، فإذا صادم جسم جسما انسلّ ذلك الهواء من بينهما بحسية وتدافع وتموّج إلى جميع الجهات، فحدث من حركته شكل كرويّ، واتّسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها، أو الماء الساكن إذا ألقي فيه حجر فيتزاحم الماء حتى يبلغ إلى أطراف الغدير، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل))[١٢]، وعمدنا إلى ذكر هذين النصين على الرغم من تشابههما لفظا ومعنى؛ لأن هذا التكرار يدل على مدى رسوخ هذه الفكرة عندهم من

جهة، ومن جهة أخرى أن النص الثاني اشتمل على عقد مقارنة ما يحدث للصوت بحالتين،حالة اتساع القارورة من نفخ الزجاج فيها، وحالة الماء الساكن إذا ألقي فيه حجر، في حين لم يجد المحدثون إلا الحالة الأخيرة لعقد المقارنة.

ومن اهتمامات (علم الأصوات الأكوستيكي) البحث في عوامل متعددة تسهم في اختلاف الأصوات والتفريق بينها، كعلو الصوت ودرجته وتوعه، جاء في الرسائل: ((إن اختلاف تلك الأصوات يكون بحسب شدة يبسها وصلابتها، وكمية مقاديرها من الكبر والصغر والطول والقصر والسعة والضيق، وفنون أشكالها من التجويف والتقبيب والثقب وقوة الصدمة، ... وأمّا فنون أصوات الآلات المتخذة للتصويت كالطبول والبوقات والدبادب والدفوف والسرناي والمزامير والعيدان وما شاكلها، فهي بحسب أشكالها وجواهرها التي هي متخذة منها، وكبرها وصغرها وطولها وقصرها وسعة أجوافها وضيق ثقبها ورقة أوتارها وغلظها، وبحسب فنون تحريك المحركين لها))[١٣].

ففي هذا النص إشارة إلى مختلف العوامل التي تؤدي إلى التفريق بين الأصوات عند الباحثين في الدرس الصوتي الحديث، فما عُرف عندهم بـ (علو الصوت) Loudness. وهو القرع بقوة أو برفق على آلة موسيقية واحدة[١٤]، يعبر عنه بـ (قوة الصدمة) التي تعني بالضرورة وجود (ضعف الصدمة) ويعبر عنه أيضا بقولهم: (بحسب تحريك المحركين لها)، أمّا (درجة الصوت) Pitch. فيعبر عنه بـ (برقة أوتارها وغلظها)، فدرجة الصوت تكون أعلى كلّما كانت الذبذبات أسرع وعددها في الثانية أكثر. ويوصف الصوت حينئذ بأنه دقيق. أمّا حين يقلّ عدد الذبذبات فإن الناتج يكون صوتا سميكا[١٥]. ومثل ذلك يقال في (نوع الصوت) timbre، وهو الأثر السمعي الناتج عن عدد الموجات البسيطة التي تكوّن الموجة المركبة

التي تحمل الصوت للأذن، وتردّد كل منها، واتساعها[١٦]. ويعبر عن ذلك بـ (فنون أشكالها).

وإذا كانت هذه الإشارات موجودة فإن حقيقة الأمر أن أخوان الصفاء في رسائلهم لهم يميّزوا بين مفاهيم المصطلحات التي جاء بها المحدثون، فعلو الصوت عندهم لا يتوقف عند قوة القرع فحسب، وإنما هناك عوامل متعددة تسهم في حدوثه، قالوا : ((والأجسام العظيمة، وإذا تصادمت كان صوتها أعظم، لأنها تُموّج هواء أكثر. وكل جسمين من جوهر واحد، مقدارهما واحد، وشكلهما واحد، نقرا نقرة واحدة معا، فإن صوتيهما يكونان متساويين، فإن كان أحدهما أجوف، كان صوته أعظم، لأنه يصدم هواء كثيرا داخلا وخارجا، والأجسام الملس أصواتها ملساء، لأن السطوح المشتركة التي بينها وبين الهواء ملساء، والأجسام الخشنة تكون أصواتها خشنة، لأن السطوح المشتركة بينها وبين الهواء خشنة، والأجسام الصلبة المجوفة... إذا نقرت طنَّت زمانا طويلا، لأن الهواء في جوفها يتردّد ويصدمها مرة بعد مرة، وتارة بعد أخرى، إلى أن يسكن، فما كان منها أوسع، كان صوتها أعظم، لأنه يصدم هواء كثيرا داخلا وخارجا، والبوقات الطوال كان صوتها أعظم، لأن الهواء المتموج فيها يصدمها في مروره مسافة بعيدة . والحيوانات الكبيرة الرئات، الطويلة الحلاقيم، الواسعة المناخير والأشداق، تكون جهيرة الأصوات، لأنها تستنشق هواء كثيرا وترسله بشدة. فقد تبيّن بما ذكرنا أن علّة عظم الصوت إنما هي بحسب عظم الأجسام المصوتة وشدة صدمها وكثرة تموّج الهواء في الجهات عنها))[١٧].

إن ما ورد في رسائل أخوان الصفاء من تقسيم لأنواع الأصوات يفوق كثيرا مما أورده الأصواتيون المحدثون في ذلك، فقد قسموا الأصوات من جهة الكيفية ومن جهة الكمية، قالوا: ((إن الأصوات تنقسم من جهة الكيفية ثمانية أنواع، كل نوعين منها متقابلان من جنس المضاف، فمنها العظيم والصغير والسريع والبطيء والحاد والغليظ والجهير والخفيف، فأمّا

العظيم والصغير من الأصوات، فبإضافة بعضها إلى بعض، والمثال في ذلك أصوات الطبول، وذلك أن أصوات طبول المواكب، إذا أُضيفت إلى أصوات طبول المخانيث، كانت عظيمةً، وإذا أُضيفت إلى أصوات الكوس كانت صغيرةً. وأصوات الكوس إذا أُضيفت إلى أصوات الرعد والصواعق كانت صغيرة. والكوس هو طبل عظيم يضرب في ثغور خراسان عند النفير يُسمع صوته من فراسخ. فعلى هذا المثال يُعتبر عِظَم الأصوات وصِغَرها بإضافة بعضها إلى بعض. وأما السريع والبطيء من الأصوات بإضافة بعضها إلى بعض، فهي التي تكون أزمان سكونات ما بين نقراتها قصيرة بالإضافة إلى غيرها، والمثال في ذلك أصوات كوذينات القصارين ومطارق الحدادين فإنها سريعة بالإضافة إلى أصوات دقّ الرزازين والجصاصين، وهي بطيئة بالإضافة إليها،وأما بالإضافة إلى أصوات مجاذيف الملاحين فهي سريعة . وعلى هذا المثال تعتبر سرعة الأصوات وبطؤها بإضافة بعضها إلى بعض . وأما الحادّ والغليظ من الأصوات بإضافة بعضها إلى بعض فهي كأصوات نقرات الزير وحدته، بالإضافة إلى نقرات المَثْنى، والمثنى إلى المثلث، والمثلث إلى البَمّ، فإنها تكون حادة. فأما بالعكس فإن صوت البَمّ بالإضافة إلى المثلث، والمثلث إلى المثنى، والمَثنى إلى الزير فغليظة. ومن وجهٍ آخر أيضا فإن صوت كل وتر مطلقا غليظ بالإضافة إلى مَزمومهْ أيّ مزمومٍ كان. فعلى هذا القياس تعتبر حدة الأصوات وغلظها بإضافة بعضها إلى بعض. وأما الخفيف والجهير من الأصوات فقد تقدَّمتْ إبانتهما عند ذكر عِلتهما... والأصوات تنقسم من جهة الكمية نوعين، متصلة ومنفصلة. فالمنفصلة هي التي بين أزمان حركة نقراتها زمانُ سكون محسوس، مثل نقرات الأوتار وإيقاعات القضبان. وأما المتصلة من الأصوات فهي مثل أصوات المزامير والنايات والدبادب والدواليب والنواعير وما شاكلها. والأصوات المتصلة تنقسم نوعين: حادة وغليظة، فما كان من النايات والمزامير أوسع تجويفا وثقبا، كان صوته أغلظ؛ وما كان أضيق تجويفا

وثقبا، كان صوته أحدّ. ومن جهة أخرى أيضا ما كان من الثقب إلى موضع النفخ أقرب، كانت نغمته أحدّ، وما كان أبعد، كان أغلظ))[١٨].

وهذا يعني أن صفات الأصوات من حيث الكيفية هي صفات نسبية، أي يمكن أن نطلق على الصوت الواحد صفتين متضادتين، وتحديد صفته يتوقف على حسب إضافته إلى صوت آخر.

وأمّا صفات الأصوات من حيث الكمية، فالمتصلة منها إما أن تكون حادة وإما أن تكون غليظة، وتحديد صفة الصوت تعتمد على سعة التجويف والثقب وعلى ضيقهما، أو على قرب موضع النفخ من الثقب وبعده عنه، والأصوات المنفصلة تتسم بوجود زمان سكون بين أزمان حركة نقراتها، وهذه الصفة مبهمة، ولكنها قد تتوضح إذا ما عرفنا مفهومي (الحركة) و(السكون) عندهم. فقد قالوا: ((إن الحركة هي النقلة من مكان إلى آخر في زمان ثانٍ، وضدها السكون وهو الوقوف في المكان الأول في الزمان الثاني))[١٩]، ثم يقسمون الحركة على نوعين: ((سريعة وبطيئة، والحركة السريعة هي التي يقطع المتحرك بها مسافة بعيدة في زمان قصير، والبطيئة هي التي يقطع المتحرك بها مسافة أقلّ منها في ذلك الزمان بعينه، والحركتان لا تعدّان اثنتين إلا أن يكون بينهما زمان سكون،والسكون هو وقوف المتحرك في مكانه الأول زمانا ما،كان يمكنه أن يكون متحركا فيه حركة ما))[٢٠].

إن معظم ما تقدم تؤيده الدراسة الصوتية الحديثة، وتعدّه من العوامل التي تتحكم بتردد الجسم المتذبذب، و(التردّد) Frequency يعني به عدد الدورات الكاملة في الثانية، فإن ((كل جسم متذبذب له تردّده الخاص الذي تتحكم فيه مجموعة من العوامل المتعلقة بالجسم المتذبذب مثل: الوزن، والطول، وبالنسبة للأوتار: نسبة الشدّ، وبالنسبة للتجاويف: الكتلة، والشكل، والامتداد . فالجسم الثقيل يتذبذب بصورة أبطأ من الجسم الخفيف. والشوكة الرنانة ذات الذراعين الطويلين تتذبذب أبطأ من الشوكة ذات الذراعين

القصيرين. والكتلة الكبيرة أو المتسعة تتذبذب أبطأ من الكتلة الصغيرة أو الضيقة))[٢١]، ومثل ذلك ما قيل في العوامل التي تتحكم بتردّد الأوتار، فإن ((أصوات الأوتار المتساوية، الغلظ والطول والخرق (أي شد الوتر) إذا نقرت نقرة واحدة كانت متساوية، وإن كانت متساوية في الطول، مختلفة في الغلظ، كانت أصوات الغليظ أغلظ وأصوات الدقيق (أي الرفيع) أحدّ، وإن كانت متساوية في الطول والغلظ، مختلفة في الخرق، كانت أصوات المخروقة حادة، وأصوات المسترخية غليظة، وإن كانت متساوية في الغلظ والطول والخرق، مختلفة في النقر، كان أشدها نقرا أعلاها صوتا))[٢٢].

يلحظ أن الاختلاف في النقر يؤدي إلى علو الصوت وانخفاضه، في حين يوصف الصوت بالغليظ أو الحاد عند اختلاف العوامل الثلاثة المتعلقة بالجسم، وهي: الغلظ، والطول، والخرق، مثلما وصفت الأصوات المتصلة من قبل عند اختلاف التجويف والثقب من حيث السعة والضيق، وهذا يدل على أن وصف الصوت بالغليظ أو الحاد مرتبط بمقدار تذبذب الجسم المصوت وتردده، وهو ما أكّده البحث الصوتي المعاصر، فإن ((الوتر الطويل يتذبذب أبطأ من الوتر القصير، ويمكن زيادة التردد أو نقصه عن طريق تغيير شد الوتر. والوتر الغليظ يتردد بنسبة أقلّ من نظيره الرفيع. وكلّما كانت فتحة التجويف ضيقة كانت نسبة التردد أقل، ويمكن مضاعفة نغمة التجويف عن طريق تصغير الحجم، أو توسيع الفتحة))[٢٣].

وأكوستيكية الصوت اللغوي لا تختلف عن أكوستيكية الأصوات الأخرى، فلابدّ من أن تتضمن عناصر العملية الصوتية نفسها، وأن الغاية من دراسة أكوستيكية الصوت هي لفهم أصوات اللغة،ولذلك نجد أن هذه الدراسة تكون دائما مدخلا لدراسة الصوت اللغوي، وهو ما يفسر قول أصوان الصفاء بأن الأصوات نوعان: حيوانية وغير حيوانية، وغير الحيوانية أيضا نوعان: طبيعية، وآلية، فالطبيعية هي كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وسائر الأجسام التي لا روح فيها من

الجمادات،والآلية كصوت الطبل والبوق والزمر والأوتار وما شاكلها، وهو هواء يتقلّب بين جسمين متصادمين بعنف، فيصكّ الهواء الراكد في آلة السمع،وتحته أنواع كثيرة، والحيوانية نوعان: منطقية وغير منطقية، فغير المنطقية هي أصوات سائر الحيوانات غير الناطقة، وأما المنطقية فهي أصوات الناس، وهي نوعان: دالة وغير دالة، فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح، وبالجملة كل صوت لا هجاء له، وأما الدالة فهي الكلام والأقاويل التي لها هجاء، وهي تقطيع الصياح بانضمام أجزاء الفم، فتحدث منه حروف، كما تضم الشفتين بنوع ما فتحدث الباء، وتضم بنوع آخر فتحدث الميم[٢٤].

فقد ختم الكلام على أنواع الأصوات بالأصوات المنطقية الدالة، والمقصود بها الأصوات اللغوية، وقد ميّزت بالتي لها هجاء، ومثّل لها بالصوتين الشفويين: الباء والميم، والهجاء هي الأصوات (الحروف) التي تستعملها كل لغة، أما تعريف (الهجاء) بأنه عبارة عن (تقطيع الصياح بانضمام أجزاء الفم، فتحدث منه الحروف)، فهو إشارة إلى مخارج الأصوات، ومنها موقع مخرج صوتي الباء والميم وهو الشفتان، يقول ابن جني في ذلك: إن الصوت ((يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها))[٢٥]، وشبه هذه المقاطع التي تقطع النفس لتخرج أصوات اللغة المختلفة، بوضع عازف الناي أنامله على الثقوب وبضغط ضارب العود على الوتر،((فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق أو الفم))[٢٦].

ودراسة مخارج الأصوات من اهتمام (علم الأصوات النطقي) Articulatory phonetics . وهو ((ذلك الفرع من علم الأصوات الذي يهتم بدراسة حركات أعضاء النطق من أجل إنتاج أصوات الكلام. أو الذي يعالج عملية إنتاج الأصوات اللغوية، وطريقة هذا الإنتاج))[٢٧]، وإنتاج

الأصوات اللغوية هو مرحلة من مراحل متعددة لعملية التفاهم اللغوي أو علمية التكلم، فهناك مرحلتان أخريان، هما: الانتقال، والاستقبال[٢٨]، ويمكن استخلاص هذه المراحل الثلاث مما ورد في رسائل أخوان الصفاء، إذ قالوا: ((إنه لو أمكن الناس أن يفهم بعضهم من بعض المعاني التي في أفكار نفوسهم من غير عبارة اللسان، لما احتاجوا إلى الأقاويل التي هي أصوات مسموعة، لأن في استماعها واستفهامها كلفة على النفوس من تعليم اللغات وتقويم اللسان والإفصاح والبيان، ولكن لما كانت نفس كل واحد من البشر مغمورة في الجسد.. ولا يدري ما عند كل واحدة منها من العلوم إلا ما عبّر كل إنسان عمّا في نفسه لغيره من أبناء جنسه، ولا يمكنه ذلك إلا بأدوات وآلات مثل اللسان والشفتين واستنشاق الهواء، وما شاكلها من الشرائط التي يحتاج الإنسان إليها في إفهامه غيره من العلوم، واستفهامه منه، فمن أجل هذا احتيج إلى المنطق اللفظي وتعليمه))[٢٩]، فالأصوات هي المنتج، واللسان والشفتان أعضاء من أعضاء إنتاج هذه الأصوات التي لا يمكن أن تنتج من دون استنشاق الهواء ووصفها بالمسموعة فيه إشارة إلى جهة الاستقبال، وهي آلة إدراك السمع، أي الأذن، ومثل ذلك قولهم: ((وذلك أن النطق اللفظي إنما هو أصوات مسموعة لها هجاء وهي تظهر من اللسان الذي هو عضو من الجسد، وتمر إلى المسامع من الآذان التي هي أعضاء من أجساد آخر، وأن النظر في هذا المنطق والبحث عنه والكلام على كيفية تصاريفه وما يدلّ عليه من المعاني، يسمى علم المنطق اللغوي))[٣٠].

وأوضح مما تقدم في الحديث عن إنتاج الأصوات اللغوية ما ورد في قولهم: ((وأعلم أن الحروف اللفظية إنما هي أصوات تحدث في الحلقوم والحنك، وبين اللسان والشفتين عند خروج النفس من الرئة بعد ترويحها الحرارة الغريزية التي هي في القلب، وهي ثمانية وعشرون حرفا في اللغة العربية، وأما في سائر اللغات فربما تزيد وتنقص))[٣١]، فقد ذكروا من

أعضاء النطق الرئة والحلقوم والحنك واللسان والشفتين، وعبروا عن إدراكهم تفاوت اللغات في عدد الأصوات التي تستعملها.

أما مرحلة الانتقال، فالهواء هو الوسط الأساس الذي ينتقل فيه الكلام، وقد ورد ذلك في قولهم: ((والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء، فمدركة بطريقة الأذنين بالقوة السامعة))[٣٢].

ولو تأملنا قليلا في البحث الصوتي عند أخوان الصفاء، وحاولنا مقارنته بأي بحث من بحوث علماء اللغة الذي عاصروهم، لوجدنا أن هناك فرقا بينهما من حيث النظر إلى الطريقة التي ينبغي أن تتبع في دراسة الأصوات اللغوية، ولعل سبب ذلك أن أخوان الصفاء لم يكونوا متخصصين بدراسة اللغة، وإنما تناولوا علوما متعددة، واستطاعوا توظيف معرفتهم بهذه العلوم في دراسة الأصوات.

ثانيا: **البحث العروضي**:

البحث العروضي لا ينفصل انفصالا كاملا عن البحث الصوتي، جاء في الرسائل: ((وأعلم أن الحروف إذا ألفت صارت ألفاظا، والألفاظ إذا ضمت المعاني صارت أسماء، والأسماء إذا ترادفت صارت كلاما، والكلمات إذا اتسقت صارت أقاويل، والأقاويل نوعان: موزون ونثر، فالموزون كالشعر والرجز والقوافي))[٣٣]، والعلم الذي يعرف به ميزان الشعر يسمى العروض[٣٤]، أو هو ميزان الشعر[٣٥].

وقال أخوان الصفاء في تعريفه: ((هو ميزان الشعر وقوانينه))[٣٦]، أو ((هو ميزان الشعر يعرف به المستوي والمتزحف))[٣٧]، وقالوا: ((إن الأشعار مركبة من المصاريع، والمصاريع مركبة من المفاعيل، والمفاعيل مركبة من الأسباب والأوتاد والفواصل، وأصلها كلها حروف متحركات وسواكن))[٣٨]، وعبروا عن المفاعيل بـ (المقاطع) في أثناء تفصيل الحديث عن قوانين العروض وأصوله، قالوا: ((وهي ثمانية مقاطع في الأشعار العربية وهي هذه : فعولن، مفاعيلن، متفاعلن، مستفعلن، فاعِ لاتن، فاعلن، مفعولات، مفاعلتن، وهذه الثمانية مركبة من ثلاثة أصول وهي: السبب، والوتد، والفاصلة. فالسبب حرفان: واحد متحرك، وآخر ساكن أو متحرك، مثل قولك : هلْ، لمْ وما شاكلها، والوتد ثلاثة أحرف، أثنان متحركان، وواحد ساكن، مثل قولك: نعمْ، وبلى، وأجل، وما شاكلها، والفاصلة أربعة أحرف: ثلاثة متحركة، وواحد ساكن، مثل قولك: غَلَبَت، فَعَلَت، وما شاكلها. وأصل هذه الثلاثة حرف ساكن وحرف متحرك، فهذه قوانين العروض وأصوله))[٣٩]. ومن هذه المقاطع (التفعيلات) الثمانية ((يتفرع سائر ما في دوائر العروض))[٤٠].

يلحظ في كلام أخوان الصفاء عدة أمور:

١ـ إن العروض ميزان الشعر الذي يعرف به المستوي والمتزحف، وهذا القول أكثر دقة من قول المحدثين بأنه ((علم يميز به صحيح الوزن من

فاسده))[٤١]، لأن فاسد الوزن ليس من الشعر، وإذا كان الكلام ليس شعرا فلا علاقة بينه وبين علم العروض، أما المتزحف فهو من الشعر.

٢ـ ذكرت التفعيلة (مستفعلن) ولم تذكر (مستفع لن)، مثلما ذكرت التفعلية (فاع لاتن) ولم تذكر (فاعلاتن)، ربما لأن الحقيقة الصوتية فيما ذكر وما لم يذكر واحدة.

٣ـ أشير إلى السبب الخفيف والسبب الثقيل، بقولهم: (وآخر ساكن أو متحرك)، ولكن الأمثلة اقتصرت على السبب الخفيف، ولم يشر إلى نوعي الوتد، وإن كان الكلام يحتمل المجموع منهما والمفروق، فالأمثلة اقتصرت على المجموع، وذكر (فاع لاتن) دون (فاعلاتن) فيه إشارة واضحة إلى الوتد المفروق (فاع)، وذكرت الفاصلة الصغرى، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى الفاصلة الكبرى.

٤ـ إن الأسباب والأوتاد والفواصل تعود كلها في الأصول إلى الحرف المتحرك والحرف الساكن.

٥ـ استعمال (المقطع) بمعنى (التفعيلة)، واستعمال (المصراع) بمعنى (الشطر).

ويرى أخوان الصفاء أن الزحافات في بحور الشعر المختلفة هي مصدر ضعف في الشعر، قالوا : ((إن أحكم الكلام ما كان أبين وأبلغ، وأتقن البلاغات ما كان أفصح، وأحسن الفصاحة ما كان موزونا مقفى، وألذّ الموزونات من الأشعار ما كان غير متزحف، والذي غير متزحف من الأشعار هو الذي حروفه الساكنة وأزمانها مناسبة لحروف متحركاتها وأزمانها، والمثال في ذلك الطويل والمديد والبسيط، فإن كل واحد منها مركب من ثمانية مقاطع، وهي هذه : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن، وهذه الثمانية مركبة من اثني عشر سببا وثمانية أوتاد، جملتها ثمانية وأربعون حرفا، عشرون منها سواكن، وثمانية وعشرون حرفا متحركات. والمصراع منه أربعة وعشرون حرفا، عشرة

سواكن وأربعة عشر متحركات. ونصف المصراع الذي هو ربع البيت اثنا عشر حرفا، خمسة منها سواكن وسبعة متحركات . ونسبة سواكن حروف ربعه إلى متحركاته كنسبة سواكن حروف نصفه إلى متحركاته وكنسبة سواكن حروفه كلها إلى متحركاته كلها. وهكذا نجد حكم الوافر والكامل، فإن كل واحد منهما مركب من ستة مقاطع، وهي هذه: مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن ست مرات. ونسبة سواكن حروف ثلث البيت إلى حروف متحركاته كنسبة حروف سواكن نصفه إلى متحركاته، وكنسبة سواكن كله إلى متحركات كله، وعلى هذه المثال والحكم يوجد كل بيت من الأشعار إذا سَلِم من الزحاف منصفا كان أو مربعا أو مسدسا، وكذلك حكم الأزمان التي بينها))[٤٢].

إن هذا النص لا يدل على معرفة ببحور الشعر العربي فحسب، وإنما يدل على معرفة بالدوائر العروضية، فالبحور الثلاثة الأولى وهي : الطويل والمديد والبسيط، هي التي تتكون منها الدائرة الأولى التي تعرف بـ (دائرة المختلف)، أما بحرا الوافر والكامل فهما يكونان الدائرة الثانية التي تعرف بـ (دائرة المؤتلف).

وعلى الرغم من اجتهادات المحدثين في إيجاد الطرائق المناسبة لتسهيل تقطيع البيت الشعري لمعرفة من أي بحر كان، نجد أن أخوان الصفاء قد سبقوهم في ذلك منذ زمن بعيد حين جعلوا حرف الهاء رمزا للحرف المتحرك، وحرف الألف رمزا للحرف الساكن، قالوا : ((فعولن مفاعيلن (ه ه اه ا ه ه اه ا ه ا) الهاءات علامة المتحركات، والألفات علامة السواكن))[٤٣].

الهوامش

(١) دراسة الصوت اللغوي ١٩.

(٢) علم اللغة العام ـ الأصوات ـ ١٧.

(٣) علم اللغة العام ـ الأصوات ـ ١٧، هامش رقم (١).

(٤) علم اللغة ـ مقدمة للقارئ العربي ـ ٢١٩ هامش رقم (٣)، وينظر: ٣٨١.

(٥) ينظر: دراسة الصوت اللغوي ١٩.

(٦) ينظر: أسس علم اللغة ٤٨، دراسة الصوت اللغوي ٢٠.

(٧) ينظر مثلا: تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية ٢٥ـ ٦٧، دراسة الصوت اللغوي ٢٠ـ ٣٤.

(٨) رسائل أخوان الصفاء ١٨٨/١، وينظر: ٢/ ٤٠٧.

(٩) ينظر : أصوات اللغة ٩٦.

(١٠) دراسة الصوت اللغوي ٢٠-٢١.

(١١) رسائل أخوان الصفاء ١٨٩/١.

(١٢) رسائل أخوان الصفاء ٤٠٧/٢.

(١٣) رسائل أخوان الصفاء ١٩٢/١.

(١٤) ينظر: دراسة الصوت اللغوي ٢٠.

(١٥) ينظر : أصوات اللغة ١٠٨.

(١٦) ينظر : أصوات اللغة ١٠٧.

(١٧) رسائل أخوان الصفاء ١٩٠/١.

(١٨) رسائل أخوان الصفاء١٩٣/١ ـ ١٩٤.

(١٩) رسائل أخوان الصفاء١٩٢/١ ـ ١٩٣.

(٢٠) رسائل أخوان الصفاء ١٩٣/١.

(٢١) دراسة الصوت اللغوي٢٣ـ ٢٤.

(٢٢) رسائل أخوان الصفاء١٩٤/١ـ ١٩٥.

(٢٣) دراسة الصوت اللغوي٢٤.

(٢٤) ينظر : رسائل أخوان الصفاء ١٨٨/١ـ ١٨٩، ٢/ ٤٠٧.

(٢٥) سر صناعة الإعراب ٦/١.

(٢٦) سر صناعة الإعراب ٩/١، وينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ٣٠١ـ ٣٠٢.

(٢٧) دراسة الصوت اللغوي ٩٧.

(٢٨) ينظر : تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية ٥٩٣.

(٢٩) رسائل أخوان الصفاء ٤٠٢/١.

(٣٠) رسائل أخوان الصفاء ٣٩٢/١.

(٣١) رسائل أخوان الصفاء٣٩٣/١.

(٣٢) رسائل أخوان الصفاء١/ ٣٩٢.

(٣٣) رسائل أخوان الصفاء١/ ٣٩٣.

(٣٤) ينظر : فن التقطيع الشعري والقافية ٢٦.

(٣٥) ينظر : لسان العرب (عرض)، الجديد في العروض ٧.

(٣٦) رسائل أخوان الصفاء١٩٧/١.

(٣٧) رسائل أخوان الصفاء١٩٧/١.

(٣٨) رسائل أخوان الصفاء١٩٧/١.

(٣٩) رسائل أخوان الصفاء١٩٧/١، وينظر ٢١٧/١، ٢٢٧.

(٤٠) رسائل أخوان الصفاء١٩٩/١.

(٤١) فن التقطيع الشعري والقافية ٢٦، وينظر: الجديد في العروض ٧.

(٤٢) رسائل أخوان الصفاء٢١٨/١.

(٤٣) رسائل أخوان الصفاء٢١٩/١.

المصادر والمراجع

١ـ أسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٨، ط ,٨

٢ـ أصوات اللغة، الدكتور عبد الرحمن أيوب، مطبعة دار التأليف، القاهرة ١٩٦٣، ط,١

٣ـ تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية، الدكتور عبد الرحمن أيوب، عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، ١٩٨٩م.

٤ـ الجديد في العروض ـ دراسات نقدية ـ، علي حميد خضير، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٨٣م.

٥ـ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، الدكتور حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م.

٦ـ دراسة الصوت اللغوي، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٦، ط,٤

٧ـ رسائل أخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار صادر، بيروت ,٢٠٠٨

٨ـ سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤م.

٩ـ علم اللغة ـ مقدمة للقارئ العربي ـ، الدكتور محمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٠ـ علم اللغة العام ـ الأصوات ـ، الدكتور كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر١٩٧٥م.

١١ـ فن التقطيع الشعري والقافية، الدكتور صفاء خلوصي، مطابع دار الكتب، بيروت ١٩٧٤، ط,٤

١٢ـ لسان العرب، ابن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥، ط١.

ملخص البحث

يعرض البحث الجهود الصوتية في رسائل أخوان الصفاء وخلان الوفاء، ويبين مدى الاهتمام بالجانبين الفيزيائي والفسيولوجي للصوت، والإدراك من أن الصوت يحتاج إلى عناصر ثلاثة، وهي: الإنتاج، والاستقبال، والوسط الناقل، وأن الصوت اللغوي يشترك من هذه الناحية مع أي صوت كان، ولكنه يختلف عن بقية الأصوات الأخرى في انه صوت ذا دلالة، وان لغات العالم تتفاوت في اختيار الأصوات الدالة على الرغم من أن أعضاء النطق واحدة.

ويعرض البحث أيضا الجهود البحثية في علم العروض التي وردت في الرسائل كالإشارة إلى البحور والدوائر العروضية والتفعيلات والفواصل والأوتاد والأسباب، ويقف البحث عند بعض المصطلحات المستعملة وبيان دلالاتها، والطريقة المتبعة في تسهيل عملية التقطيع الشعري.

Abstract:

The study shows the phonetic efforts in ((Rasa'el Ekhwan AL-Safa wa Khelan AL-Wafa)), and the interesting on the physical and physiological of sound. Through that we realized that the sound needs three element: occurance, reciere and medium, and that the Linguistic sound, on this level, shared any other sound rather it is distinguished to be significance, we also found that languages have differrent selections of sound though the articulaters are the same.

The sound also deals with the resarch efforts in prosody in these letters ((Rasa'el)). The terms, their significane, the way of scanning are also studied in theis resecrch.